

في الأدب الفرنسي

تعاليم على ثلاث

مكتبة العربي

الطبيعة بدلا من محاكاة القدماء ، وأصر على ان الشعر هو أداة الدراما .

ورغم ان هذه الافكار قد ظهرت قبل ذلك فسي كتابات روسو وغوته وشيلر ، الا ان هيفو جدها وعبر عنها بقوة واخلاص ..

Les Mondes

« العالمين » مجلة « العالمين »

الى انقلاب في الادب قائلة بأنه في عشية الثامن عشر من «برومير» (1) ولا احد يعلم اين بونابرت ، بينما يدعو هيفو صحبته في ١٢ فبراير ١٨٢٧ لسماع المسرحية الجديدة في منزله .. وعندما فرغ من تلاوتها هتف له الجميع كما هتفت له باريس فيما بعد : « عاشت مسرحية كرومويل » .

كان هيفو يريد ان يخلق مسرحا جديدا ، وان يجعل الادب في متناول الشعب ..

ومضت شهور ذلك العام . ويكتب ستندال قائلا ان الرومانتيكية في فرنسا قد اصبحت عبادة الاحرار والديموقراطيين والشباب الذين التهبوا بالرغبة في الحرية ، وبحثوا عن مخارج لطافتهم وحماساتهم في الادب والفن . انها حركة - كما يقول - تسعى الى التعبير عن الالام والاحلام الحيسة في مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي . وهي « ضرب من الثمار الادبية يقدم للناس لكي يهبهم اقصى درجات البهجة على ضوء الازواض الراهنة لعقائدهم وتقاليدهم » .

كان فيكتور هيفو قائدا لتلك الحركة في فرنسا مما جعل كثيرا من النقاد يطلقون عليه لقب « قطب الرومانتيكية » . وقد مضى يكتب للمسرح فأخرج « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » عام ١٨٢٩ و « ماريون دي لورم » في يونيو من العام نفسه ، ولكن الرقابة اعترضت على الاخيرة بحجة انها تسيء الى الملكية في

كتب الناقد الفرنسي « سانت بيف » في صحيفة « العالمين » عام ١٨٢٧ يتحدث عن شاعر شاب برز بقوة في الاوساط الادبية في ذلك الحين ، مشيرا الى خصوبة الشاعر ، معتبرا ظهوره كظاهرة « لا يدرك سرها سوى الالهة » . ثم انحى باللائمة على الذين لم يتذوقوا الشعاع مقتصرين على بعض الصور الظاهرة الطفيفة . وحذر الشاعر نفسه من خطر طاقاته المتدفقة القوية قائلا : « ليس هناك خطر ابلغ من خطر القوة في الشعر » .

وكان ذلك الشاعر الذي حظي بتقريب الناقد المعروف هو فيكتور هيفو .. وكان في ذلك الحين شابا في الخامسة والعشرين ، يتقد حمية ونشاطا ، تضمم صحبته عددا من شباب الادب والفن من بينهم الشعراء : سانت فاليري ، فيكتور بافي ، الفرد دي موسيه ، الفرد دي فيني ، والرسم يوجين دلاكروا ، والمثال دافيسد دانجيه ، والقصاص بروسبير ميريميه . كما كان يتردد عليه ايضا سانت بيف .

ويقرر سانت فاليري انه ما من احد اتصل بهيفو في تلك الايام ، الا وسحرتة موهبته واحساسه الرقيق وخياله الخصب . ومن هنا اطلقوا عليه لقب : « امير الشعراء » .

وفي فبراير من عام ١٨٢٧ كان هيفو قد انتهى من مسرحيته الجديدة « كرومويل » بعد ان قرأ كثيرا للشكسبير وكذلك بلزاك ولمريميه فيما كتبه عن الطاغية الانكليزي . غير ان الامر الجدير بالاشارة اليه في هذه المسرحية هو مقدمتها التي تعتبر بحق وثيقة للحركة الرومانتيكية في فرنسا . ذلك ان المسرحية في ذاتها كانت طويلة مفككة البناء ، حاول الكاتب فيها ان يصور الطاغية الانكليزي ، بيد ان صورته جاءت باهتة لا تلتزم وقائع التاريخ كقريناتهما من اعمال غيره من الكتاب الرومانتيكيين في تلك الفترة ..

وقد دعا هيفو في هذه المقدمة الى نبذ الوحدات الثلاث (الزمان والمكان والموضوع) وهاجم التقليد والقواعد والشروط الموضوعية ، وناشد المبدعين ان يحاكوا

(1) برومير هو ثاني الشهور في السنة حسب تقويم الحرية الفرنسية وقد قام نابليون بانقلابه الاول في ١٨ منه .

فرنسا ، فقد صور فيها الملك لويس الثالث عشر كالعوبة
في يد الكردينال ريشيليو .

بيد ان اليأس لم يجد طريقه الى فيكتور هيفو ،
فشرع يكتب مسرحية اخرى اختار لها اسم «ارناني» (١)
ويعتقد بعض النقاد انه استوحاها من « مانفرد » التي
كتبها بايرون ، واوضحوا وجه التشابه بينهما فسي
الشخصية الرئيسية : فمانفرد يعيش في قلعة نائية في
جبال الالب ، وارناني ايضا يعيش فوق جبال اراغون
باسبانيا .. وكلاهما ثائر متمرّد ..

وتتلخص المسرحية في ان ارناني هذا امير اراغون
شاب مغامر ، جرد من املاكه فالتحق بعصابة شريرة
لكي ينتقم من الملك كارلوس عدو اسرته ..

ويقع ارناني في حب « دوناسول » وهي فتاة
جميلة مخطوبة لدوق عجوز هو دوق دي غوميز ، ثم
يظهر منافس جديد في حب دوناسول هو « دون كارلو »
وينتهي الامر بأن يتبارز ارناني ودون كارلو للفوز
بدوناسول ، غير ان الدوق الشيخ يقطع عليهما المباراة
ويقبض عليهما ثم يأمر بقتلهما .. وهنا يكشف دون
كارلو عن شخصيته الحقيقية فيظهر انه الملك كارلوس
جاء متخفيا لزيارة الدوق .. ويدعي ان ارناني احد
رجالهم .. وتمض القصة على هذا النحو من المغامرات
والمفاجآت ، وتنتهي بأن يرد الملك الى ارناني املاكه
والقابه ويعفو عنه ، ويأمر بتزويجه من الفتاة التي احبها .
ولكن الدوق يفتاظ ويصمم على ان يأمر الشاب بالموت يوم
الزواج نفسه (كان ارناني قد وعد الدوق عندما نجا من
الملك بالا يتأخر عن الانتحار في اليوم الذي يختاره الدوق)
ويفي ارناني بوعدده ويتجرع السم ، وفي الوقت نفسه
تتجرع دوناسول السم ايضا فتموت .. ويجيء الدوق
فينتحر هو الآخر ..

تلك هي « ارناني » التي قالوا انها حاكت مؤلفات
والتر سكوت ، وكانت صدى لتمثيلية بايرون .. لقد
كانت فتحا جديدا للرومانتيكية ونذيرا اخيرا للكلاسيكية .
واجازت الرقابة المسرحية .. وشرع بايرون تايلور
مدير مسرح الكوميدي فرانسيز آنذاك يعد العدة لاجراء
التجربة في ٣١ اكتوبر ١٨٢٩ .

وفجأة بدت في الجو سحب وغيوم .. وقام
كثيرون يناصرون هيفو العبداء . فنشر كاتب يدعى
« لاتوش » مقالا حمل فيه على انتاج هيفو وصحبته .
كما نشر « شارل نوديه » احد اصدقائه فجأة مقالا

هاجم فيه فيكتور هيفو لهجره الشعر الخالص وسعيه
وراء اضواء المسرح .. ويومها كتب اليه هيفو يقول :
« حتى انت يا شارل ! » . وفي الشهر نفسه اعلنت
صحيفة « الميركور دي فرانس » ان هناك جيشا اديسا
ناشئا « كامل التسلح انتظر بدون صبر نتيجة معركة
حاسمة رغب قائده في خوضها وحده » .

وكتب نوديه مرة اخرى الى لامارتين في ١١ يناير
١٨٣٠ يحدثه عن خطورة حركة هيفو وعن هذه « الحرب
الاهلية الصغيرة » وعن نواياه واستعداداته في ارناني
لبعث مذهبه الى حيز الوجود .. وراح اصدقائه
يتوقعون سقوطه وفشله .. حتى « سانت ييف » خشي
ذلك فلم يكتب في الصحف عن ارناني ، وأشار على
هيفو ان يعدل عن تفكيره لان الجمهور لا يعي شيئا من
الفن الحق .

ولكن هيفو أصر على موقفه . ولم توجه الضربات
من الاصدقاء فحسب ، بل صدرت من المسرح ايضا ،
فقد تمللت مدموازيل مارس التي وكل اليها القيام
بدور دوناسول .

وراح هيفو يفكر في الصدمات المتوالية ومناورات
الصحف والبوليس ، هذا بجوار ما كان يلقاه من امرأة
ايه من متاعب . ويومذاك يكتب هيفو قائلا : « حسنا .
اني اسبح في خضم واناضل » .. وراح يعد العدة
ليضرب ضربته .. واقترب يوم الافتتاح ..

كان الخامس والعشرون من فبراير ١٨٣٠ يوما
مشهودا في تاريخ فرنسا الادبي . ففي ذلك اليوم من
ايام الشتاء القارسة البرد ، قام هيفو بمساعدة سانت ييف
باعداد جيش صغير من المتطوعين للدفاع عن الادب الجديد
اذا لزم الامر .. وضمت جحافل الارنانيين - او الطلائع
كما كان يسميهم - ما يقرب من ٨٠ « متطوعا » مزودين
بالاوامر والطعام والشراب .. واعد لهم بطاقات حمراء
اللون طبع عليها اللفظ الاسباني Hierro !
اي : « حديد » .. وسار جيش ادياء المستقبل وفنانيه
يقود احدي فصائله متطوع طويل القامة في الثامنة
عشر يدعى « تيوفيل غوتيه » وكان شعره يتدلى على
كتفيه ، ويرتدي صديريا قمرزيا من الساتان وسروالا
حريريا اخضر اللون .

وعندما غادر الجيش منزل هيفو صاح جيرار دي
نرفال - وكان يقود فصيلة اخرى - في صديقه غوتيه :
« هل تستطيع يا غوتيه ان تحقق امل رجالك ؟ » فرد
الشاب قائلا : « سوف افعل » ثم لوح لاتباعه الذين
صاحوا في صوت واحد : « Hierro الموت لاصحاب

(١) اسم مدينة اسبانية زارها ايام طفولته . ومما يذكر ان الشيخ
نجيب حداد قد ترجم هذه المسرحية بعنوان « حمدان » ومثلها
الشيخ سلامة حجازي في مطلع هذا القرن .

خمنوة الى ذاك الشرفة

ماذا في الشرفة يا حسناء سوى الوحدة ..
والناس تطوف في الجناح اثنين اثنين ؟
ماذا فيها غير الحيرة
والقلق الدامع في عينيك الزرقاوين
الحب الحب تريدينه ..
وتخافينه ؟؟
قد طالت ريشاتك يا انثى واشتد جناحك
فلام تخافين التحليق ؟
والدفع الدفع تنادين ..
وتهاينينه ؟؟
عيناى تحدى في خديك فيلتهبان
او لست تحسين التحديق ؟
ام انثى تمكر بالصياد ؟
بالامس وصفت فتاك لنا :
قناصا يظفر بالمرآه
موفور الجراه
فسأروي كيف نجوت من الفخ المنسوب
اسفا اعنى كيف ضللت الفخ المحبوب
كنا صيادين اثنين
كل منا ذو قلب جائع
وخرجنا نلتمس القوت لقلبيننا
طالت رحلتنا في المجهول
قلباننا رغم الجوع يعافان الصيد المبذول
طالت رحلتنا ...
حتى ابصرناك تطلين
في شرفة قصرك تبسمين
لم ادر لمن ؟
اتراها كانت لرفيقي ؟
وعلى عتباتك ابصرنا حبا منشورا
شعرا منشورا
لم ادر لمن
فقصصت بريقي
ورجعت وسهمي في كبدي
وهناك في الكهف البارد
القيت صديقي
قال ويمناه على كبده :
« صيفي : كانت بسمتها لك
والحبات المنثورة لك »
فأسفت لخيبة صيادين
حسنا :
سأغافله وأمر غدا تحت الشرفه
ولعلي لا القالك هناك

القاهرة اسماعيل مصطفى الصيفي

الشعر المستعار « ! (1) . . وسار بلزك وستندال في
الموكب يتابعانه باحساسات ممزوجة بالقلق والشفقة .

ووصل الموكب الصاحب الى المسرح ، واسرع مديره
ففتح بابا خافيا تدفقوا منه الى اماكنهم ، وكان عليهم ان
ينتظروا من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الساعة مساء
وهو موعد الافتتاح . . ومن هنا جلسوا يأكلون ويشربون
ويصخبون حتى ازفت الساعة ، وبدأت المزكبات تفد تبعا
الى المسرح مقلّة اشراف باريس ونجوم مجتمعا . .
وانشرت روائح الثوم والاطعمة الشعبية ، واحترار مدير
المسرح ، واخذت مدموازيل مارس تشكو للمؤلف قائلة :
« لقد حططنا رفاقك الرومانطيكين ! »

واطفنت الانوار ، ونظر هيفو الى المسرح من ثقب
الستار فرأى اميل دو جراردان ، شاتوبريان ، مدام ريكاميه ،
بنيامين كونستان . . والجيش اللجب ما زال يضخ ويصب
غضبه ولعناته فوق رؤوس الكلاسيكيين : « تبا لكم !
الى المقصلة يا اصحاب الشعر المستعار » .

ودقت الدقات الثلاث التقليدية ، وارتفع الستار ،
ومثلت ارناى وسط عاصفة من التصفيق والثناء . .
وظلعت الصحف في اليوم التالي تتحدث عن اللون
الجديد الذي نشأ في الادب . وكتب شاتوبريان - احد
شيوخ الادب حينذاك - الى فيكتور هيفو مهنا قائلا
في تواضع : « سيدي - انا ذاهب وانت آت ! »
واستمر العرض خمسا واربعين ليلة ثبتت فيها
الرومانتيكية اقدمها رغم ما قام في وجهها من عقبات .

★

تلك هي معركة « ارناى » التي دعمت الحركة
الرومانتيكية في فرنسا . ولئن سيطرت عليها ثورية
الشباب ، الا انها لم تكن قط حركة صيانية ، بل كانت
ضرورة استشعرها اولئك الشبان في بحثهم عن مخارج
للتعبير عن افكارهم ومفاهيمهم التي صاحبت المرحلة
التاريخية من تطور المجتمع الفرنسي في ذلك الحين .

وليس من شك في ان تلك المعركة قد اثرت فسي
واقع الادب الفرنسي ، وخرجت جيشا من ادباء الحركة
اخلصوا لها وادفعوا عنها .

وليس معنى هذا انهم التزموا حدود الرومانتيكية
فحسب ، وانما عبروا عن القيم الجديدة بصورة افتقر
اليها انصار القديم الاتباعيون .

علي شلش

القاهرة

(1) المقصود بهم الكلاسيكيون لا سيما اعضاء الاكاديمية الذين
يقعون على رؤوسهم هذا الشعر المستعار .